الشُّعراء في قصر يوسفَ بن محمَّد الأيُّوبيِّ شعر المدح السُّلطانيَّ أنموذجاً

YUSUF B. MUHAMMED EL-EYYÛBİ'NİN SARAYINDA ŞÂİRLER VE SALTANAT HAKKINDAKİ ÖRNEK ŞİİRLER

Poets in the Palace of Salahaddîn b. Muhammed el-Eyyûbî for Example The Poems of Eulogy

Ousama EKHTIAR,[1] Mustafa KIRKIZ[2]

Received: 29.08.2016 / Accepted: 03.04.2017

Öz

Şairlerin eski çağlarda kral ve devlet başkanların mahiyetinde, onlara yakın olarak ikamet etmek istedikleri bilinen bir gerçektir. Zira o dönemin şairleri çağımızın elçileri mesabesindeydiler. Onlar, devletin resmi görüşünü dillendiren, devlete ait iyi haberleri ilan eden ve övgü şiirleri yoluyla devletin şanını ebedileştirmeye çalışan aracılardı. Aynı zamanda şiirleriyle devlet başkanların ruhlarına hitap ederek başta siyasî sıkıntılar olmak üzere hayatın zorlukları karşısında geçici de olsa onları rahatlatan kişiler olarak bilinmekteydiler.

Biz de söz konusu yöneticilerden Melik Selahaddin b. Muhammed'in hükümdarlığı dönemindeki edebî yaşamı konu edindik. O şairlerin kendi himayesi altında toplanması hususunda büyük çabalar harcayan bir emirdi. Onun sarayı farklı bölgelerden gelen şairlerle dolup taşıyordu. Dolayısıyla onun çevresinde faal edebi etkinlikler gerçekleştiriliyordu.

---

1 Prof. Dr., Bingöl Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, o - sama967@gmail.com.

2 Doç. Dr., Bingöl Üniversitesi, İlahiyat Fakültesi, Arap Dili ve Belagati Anabilim Dalı, mkirkiz@hotmail.com.

Çalışmamızda Melik Selahaddin'in sarayındaki edebî yaşamla birlikte okunan şiirlerin teması ve içeriği ele alınmıştır. Özellikle araştırmamızda övgü, mersiye ve törenlerde söylenen şiirlere yer verilmiştir. Zira bu şiir türleriyle bölgedeki sosyal ve siyasi yaşam betimlenmektedir. Bununla birlikte bazen insan psikolojisini rahatlatan gazel ve vasıf şiirlerinden de bahsedilmiştir. Ayrıca genel olarak şiirlerde ele alınan konulara değinilerek dönemin ve bölgenin ünlü şairleri ve şiirlerinin sanatsal değeri incelenmiştir.

Anahtar Kelimeler: *Eyyubiler, edebiyat, şiir, medih anlamları, Selahaddin b. Muhammed.*

Abstract

It is a reality that the poets desired to live near the kings and statesmen in the past. Because the poets of that time are the delegates of our current time. They were the mediators who mentioned the official ideas of the state and who published the good news about the state and that tried to internalize the fame of the state to the head of the state with their poems. They were the people who were known to relieve the head of the state especially with political difficulties against difficulties of life.

We handled the literary life issue of the administrator Melik Salahaddin f. Muhammed. He was a chief who struggled a lot to gather the poets under his auspices. His palace was full of poets who came from different parts of the country. So, there were rousing activities realized around his palace.

In this study, we handled the theme of the poems and their contents in Melik Salahaddin's palace with his literary life. In our study we especially, gave place to praise, dirge, and poems read during the ceremonies.

Because with these types of poems, social and political life is depicted in the area. In addition to this sometimes the poems that give piece to psychology of human being are mentioned. Apart from this, by mentioning the subjects of the poems we studied the famous poems of that period of the area and studied the artistic values of the poems.

Key words: *Eyyubis, literature, poem, Maening of Eulogy, Salahaddin b. Muhammed.*

ملخص البحث

من المعروف أن الشُّعراء يستهويهم بلاط الملوك والأمراء؛ لأنَّ الشَّاعر في ذلك الزَّمان يكاد يمثّل منصب السَّفير في زماننا، فهو النَّاطق الرَّسمي باسم الدَّولة، ينقل أخبارها، ويخلِّد أمجادها من خلال

شعر المديح، فضلاً عن الوظيفة الأخرى المنوطة بالشَّاعر، وهي التَّنفيس عن السَّلاطين من خلال أشعار الوصف؛ لأنَّ النُّفوس تميل إلى الترويح عنها من أعباء الحياة وأثقالها.

ندرس في هذا البحث الحياة الأدبيَّة في بلاط الملك يوسفَ بنِ محمَّد الأيُّوبيِّ، ومن المعروف أنَّه كان حريصاً على استقطاب الشُّعراء إلى بلاطه، فقد كان قصره يعجُّ بالشُّعراء من مختلف البلاد، ولا يخفى أن الحياة الأدبيَّة في بلاطه كانت نشيطة مما يقتضي منَّا دراستَها.

يُعْنَى هذا البحث بدراسة الأغراض الشِّعريَّة التي تناولها الشُّعراء في قصر الملك يوسف بن محمَّد الأيوبيِّ، وسيعتني هذا البحث عناية خاصة بشعر المديح؛ لأنَّ هذه الأشعار ترصد الحياة الشِّعريَّة في بلاطه، وهو من أحفاد الملك النَّاصر صلاح الدِّين يوسف بن أيُّوب، وسوف نقتصر في هذه الدِّراسة على شعر المدح الذي قيل فيه.

الكلمات المفتاحيَّة: الأيُّوبيُّون، الأدب، الشِّعر، معاني المدح، يوسف بن محمَّد.

الشُّعراء في قصر يوسفَ بنِ محمَّدٍ الأيُّوبيِّ شعر المدحِ السُّلطانيِّ أنموذجاً

ترجمته

الملك النَّاصر يوسف بن محمَّد بن غازي بن النَّاصر صلاح الدِّين يوسف بن أيُّوب، وُلِدَ في قلعة حلب سنة سبع وعشرين وستمئة، وتوفي سنة تسع وخمسين وستمئة، وهو آخرُ ملوك بني أيُّوب (الزركلي، ٢٠٠٣: ٨، ٢٤٩) وَلِيَ المُلْكَ فيها بعد وفاة والده سنة (٦٣٤ هـ) وعمره نحو سبع سنين، فقام وزراء أبيه بتدبير مملكته، لا يمضون أمراً قبل الرجوع إلى جدته الصاحبة (ضيفة خاتون) أخت الملك الكامل، إلى أن توفيت سنة (٦٤٠هـ)، فجلس يوسف في دار العدل، آمراً وناهياً، وعمره ثلاث عشرة سنةً، وكان محبَّباً إلى رعيَّته. أضاف إلى دولته بلاد الجزيرة وحرَّان والرَّها والرَّقَّة ورأس العَين وحِمْصَ ثمَّ دمشقَ سنة (٦٤٨هـ)، وأطاعه صاحب الموصل وماردين، ثمَّ هاجم مصر فدخلها عنوةً بعد قتال شديد، فغلبَتْ عليه طائفةٌ من جندها فقفلَ راجعاً إلى الشَّام، ثمَّ استقرّ برهةً من الزَّمن في دمشق، وصفا له الملك هناك نحو عشرة أعوام، حتى بدَتْ غارةُ التَّتارِ على بقيَّة باقيةٍ من الخلافة العبَّاسيَّة في المنطق، وبعد أن استولى التَّتار على البلاد ذهبوا بالملك يوسف إلى (هولاكو) فقتله.

كانت للشعراء دولة معينة في أيام الملك يوسف؛ لأنَّه كان ينظم الشِّعر ويجيز عليه، وهو الباني لدار الحديث النَّاصريَّة بسفح قاسيون بدمشق، وتسمَّى البرَّانيَّة، والنَّاصريَّة التي في داخل دمشق تسمَّى الجوانيَّة. وكان جواداً حليماً.

مدائح الشُّعراء فيه

كان يوسفُ محبّاً للأدب، وقد أسهم ذلك في تطوُّر الحركة الأدبيَّة في عصره، ومن الجدير بالذِّكر أنَّه جمع إلى شخصيَّته العسكريَّة محبةً كبيرةً للشِّعر والشُّعراء، ولهذا اجتمع في قصره كثير من الشُّعراء. ولم تكن علاقة الشُّعراء به علاقة التَّكَسُّب فحسب، فبعض الشُّعراء مدحَه لأنَّه كان تجسيداً للمثال الحيِّ في الكرم والفروسيَّة. حقًّا إن الشُّعراء مدحوه في حياته، لكنَّ الذين رَثَوه بعد وفاته يقدِّمون دليلاً ناصعاً لِشخصيَّة يوسف التي كانت تؤثِّر فيهم.

شخصيَّة يوسف بما جمعَتْهُ من شجاعة وكرم كانت عاملَ جذب لكثيرٍ من الشُّعراء، ولذلك امتلأ قصره بشعراء كانوا سبباً في نشاط الحركة الأدبيَّة في عصره، وقد تعدَّد الشُّعراء الذين قصدوا بلاطَه؛ لكنَّنا في هذا البحث نقف عند أبرزهم تأثيراً في الحركة الأدبيَّة في عصره.

نبدأ بالشَّاعر هاشم الأسديِّ (ت ٥٧٧ هـ) وهو هاشم بن أحمد بن عبد الواحد بن هاشم الأسديُّ، المعروف بأبي طاهرٍ الحلبيِّ، كان واعظاً أديباً بليغاً، وهو خطيبُ حلبَ المشهورُ في عصره، أصلُه من الرَّقَّة، ومولده ونشأته ووفاته في حلب. وإليه ينسب (درب الخطيب) شرقيَّ الجامع الكبير بحلب الآن، وله تصانيفُ كثيرةٌ، منها كتاب (التَّنبيه على اللَّحن الخفي) و(مناجاة العارفين) وديوان (الخُطَب) وكتاب في (أفراد أبي عمرو بن العلاء)، وهو من أعيان شعراء حلب العظماء في عصره(الزركلي، ٢٠٠٣: ٨، ٢٤٩).

مدحَ الملكَ يوسفَ الشَّاعرُ هاشمٌ الأسديُّ في كثيرٍ من أشعاره، واجتمعَتْ مدائحه فيه على صفات الكرم والشَّجاعة، ويظهر من بعض أشعاره أنَّه كان يأمل عطاياهُ، فمن ذلك قوله فيه (قلائد الجمان، ٢٠٠٥: ٩، ١١٤):

فَلأظفرنَّ بكلِّ ما أمَّلْتُه * بمدائحي للنَّاصر السُّلطاني

كان يوسف جواداً كريماً، كثيراً ما قصده العُفاة في حاجات لهم فقضاها؛ لذلك رحل إليه الشُّعراء قاصدين كرمَه وجودَه، وقد نزلت حاجةٌ ملمَّةٌ بالشَّاعر هاشم الأسديِّ، فقصده سائلاً، فوجد عنده ما يصبو إليه من الكرم وحسن العطاء، ويظهر من الشِّعر الذي مدحَه فيه أنَّ الشَّاعر هاشماً الأسدي كان من كبار شعراء عصره، وكان محلَّ تقديرٍ لكثيرٍ من الأعيان في عصره، حتَّى إنَّه ذكر ذلك في أثناء مدحه للملك يوسفَ منبِّهاً على منزلته الأدبيَّة في عصره، وقد مدحه بقصيدةٍ يطلب حاجته فيها، ويشير إلى منزلةِ شعرِه في عصره، ومنها قوله (قلائد الجمان، ٢٠٠٥: ٩، ١١٤):

حاشـــــاك ترجع آمالي مخيَّبَـةً * وسِعْرُ شِعري قد سارَتْ به السِّيَرُ
وأنتَ أَنْدَى الورى كفّاً وأعظمه * قَدْراً، وبالعُرْفِ والمعروفِ مَشْـتَهـرُ

وحين نقف عند الشُّعراء الذين قصدوا الملك يوسف، لا ننسى الشَّاعر الفحلَ في عصره البهاءَ زهيراً، وهو بهاء الدِّين زهيرُ بن محمَّد بن عليٍّ المهلبيُّ (سِير أعلام النبلاء،١٩٨٥: ٢٣، ٣٥٥) شاعر عصره، وأديب دهره، وكان من الكتَّاب المعروفين في عصر الملك يوسف، ونظمَ الشِّعر فرقَّقه، وتعجَّب به العامَّة من جمال شعره ورقَّته، وقد اتَّصل بخِدْمَةِ الملكِ الصَّالحِ أيُّوبَ بمصر، فقرَّبَه وجعله من خواصِّ كُتَّابه، وظلَّ حَظِياً عنده إلى أن مات الصَّالح، وتوفي بمصر سنة (٦٥٦هـ)، ومن يقرأ ديوانَ البهاءِ زهيرٍ يجدْ إعجابَ الشَّاعر بالملك يوسف، من حيثُ فطنته وذكاؤه وشجاعته وكرمه، وقد وفد عليه مرَّاتٍ مادحاً، ولاسيَّما حين تحلُّ بالشَّاعر نازلةٌ، وقد مدحَه لمعرفته بقدره، وسَعَة يَده، ونَجْدَته للملهوفِ، ومعرفته بمنازل الناس ومكانتهم من رعيَّته، فَمِنْ ذلك قولُه فيه يسأله أنْ يأمر بتنصيبه في المنصب الذي كان عليه أيَّام الملك الصالح، بعد أن نزع منه ظلماً (البهاءُ زهير، د.ت: ١٣١):

أُجلُّك أنْ أُنهي إليـكَ شكايَتي * فها أنا فيهـــــا مقدِّمٌ متوقِّفُ
ولي منك جودٌ رامَ غيرُك نَقْصَه * وحاشا لجودٍ منكَ بالنَّقصِ يُوصفُ
لأنِّيَ أدري أنَّ لي منك جانبـاً * سَيُسْعِدُني طولَ الزَّمان ويُسْـــعِفُ
تُبَشِّرني الآمالُ منـــكَ بنظرةٍ * تُزَفُّ لي الدُّنيـــــا بها وتُزَخْرَفُ

ويجري البهاءُ زهيرٌ في هذه الأبيات على عادة الشُّعراء العرب الأقدمين في التَّكَسُّب، فنراه يعرضُ بضاعةَ شعرِه على الملك النَّاصر مؤمِّلاً خيرَه، ويجعل مدحَه بضاعةً في سوقِ كرمِ الممدوح، ولاسيَّما بعدما طبقَتْ سيرتُه الآفاق في الجودِ، وفي ذلك يقول (البهاءُ زهير، د.ت: ٤٦):

عَرَضْتُ على خيرِ الملوكِ بِضاعَتي * وألفيْتُ سُوقاً صَفْقَتي فيه تربحُ

يبدو أنَّ الشُّعراء الذين مدحوا الملكَ يوسف لم يغفلوا جميعاً عن مدحه بصفة أصالة النَّسب، وبالأسرة العريقة في المُلْك، فكأنَّ هذا الفرعَ أصلٌ من شجرة طيِّبة، ولذلك امتدح البهاءُ زهير عائلةَ الأيُّوبيِّين ومنهم الملك يوسف جرياً على عادة الشُّعراء في ذلك، فهو من عائلة كريمةٍ مهَّدَت الطَّريق إلى العلا بالجدِّ والمثابرة والصَّبر (البهاءُ زهير، د.ت: ٤٦):

كذاكَ بَنـــو أيُّوبَ ما زالَ مِنْهُمُ * عظيمٌ مُرَجَّى أو كَـــريمٌ مُمَدَّحُ
أناسٌ هُمُ سَنُّوا الطَّريق إلى العُـلا * وهُمْ أَعْرَبُوا عنها وقالوا وأَفْصَحُوا

ومن هذه النَّاحية برزَتْ براعةُ البهاء زهير في وصف يوسف ومدحه بِمَدْحِ عائلة الأيُّوبيِّين كلِّهم، فهو يتوصَّلُ إلى مدح الملك يوسف من خلال أسرته، فَيُحْسِنُ في الوقوف على صفات العائلة الأيُّوبيَّة من حيث الذي اقتضاه جهد العائلة في بناء مُلْك تليد بالمثابرة على المجد، حتَّى إنَّه يُصَوِّرهم وقد ركبوا ظهرَ الأرضِ فقادوها إلى أمجادهم، وكَسَوها بِبُردِ المُلْكِ الأيُّوبيِّ الوطيدِ بالجهادِ، نجد ذلك في قوله (البهاءُ زهير، د.ت: ١٧٧):

مِنْ مَعْشَرٍ فاقوا الملوكَ سِيادةً * وسعادةً وتَطَوُّلاً وتَفَضُّـــلا

وكأنَّ متنَ الأرضِ يومَ ركوبِهِم * يَكْسُونَه بُرْداً عليه مُهَلْهَـلا

بعد أنْ يستعرضَ البهاءُ زهير براعتَه في وصف مجدِ العائلة الأيُّوبيَّة ينصرفُ إلى بسط الدِّيباج لمدحِ الملك يوسف، فيجمع في مدحه بين صفتين مشتركتين، هما صفتا الكرم والشَّجاعة، إنَّه كريمٌ في ساحة المعركة، حتَّى إنَّه يكثرُ لديه القتلى من أعدائه، فيظهر جودُ سيفه في رقابهم الباغية، وإنَّه كريمٌ في محضرِ المساكين والفقراء لديه من رعيته الذين قصدوا قصرَه، فَيُعْمِلُ يدَه في بسط الدَّنانيرِ لِيَجْبرَ عَوَزَهم، فَيَدُهُ في كلا العَطاءَين كريمةٌ، لأنَّه أسدٌ في ساحة الوَغى، وغيثٌ في ساحة الكرم، وفي هذا يقول (البهاءُ زهير، د.ت: ١٧٧):

وإذا سألْتَ سألْتَ غيثاً مُسْبلاً * وإذا لَقِيْتَ لَقِيْتَ لَيثاً مُشْبِلا

إنَّه يَعْلُو بكرمِه تفضُّلاً على المساكين والمحتاجين، ويعلو تَطَوُّلاً على الكفار والمعتدين، فَيَدِينُ له بذلك المحبِّ طَوعاً، ويدينُ له العدوُّ قهراً وجبراً، وذكر ذلك فقال (البهاءُ زهير، د.ت: ١٧٩):

يا أيُّها الملكُ الذي دانَتْ له * كلُّ الملوكِ تَوَدُّدًا وتَوَسُّلا

فَعَلاهُمُ مُتَطَوِّلاً وحَبَـــاهُمُ * مُتَفَضِّلاً وأَتـاهُمُ مُتَمَهِّلا

يظهر من مدائح البهاءِ زهير صدقُه وقوَّةُ عاطفته في مدح الملك يوسف، وهو يجانبُ بذلك مظنَّةَ الرِّياءِ أو تهمةَ النِّفاقِ، ويصرِّح به في قوله (البهاءُ زهير، د.ت: ١٧٩):

يا مَنْ مديحي فيه صِدْقٌ كُلُّه * فكأنَّما أَتْلُو كتـــابـا مُنْزَلا

يا مَنْ ولائي فيــه نَصٌّ بَيِّنٌ * والنَّصُّ عِندَ القومِ لَنْ يَتَأَوَّلا

من الشُّعراء الذين لَزِموا الملكَ يوسفَ الشَّاعرُ كمالُ الدِّين الأعمى (فوات الوفيات، ٢٠٠٠: ٢، ١٤٠) وهو علي بن محمَّد بن المبارك، أديبٌ مقرِئٌ. كان مقرئاً في الأشرفيَّة من الشَّام، وكانت

وفاتُه فيها سنة (٦٩٢ هـ)، وقد وصف كمالُ الدِّين كرمَ الملكِ يوسف بشعرٍ يفيضُ بالصُّور التي طغَتْ عليها سمةُ المبالغة، ولا ريب في بعض تلك المبالغات جاءت ممجوجةً، فمن ذلك قولُه (فوات الوفيات، ٢٠٠٠: ٢، ١٤١):

وإذا ما قضيْتُ سُـــكْراً منَ الوجدِ فلا تَحْزَنا ولا تَدْفِنَاني

فأيادي ذا النَّاصرِ المَلِكِ تُحْيِيْني كإحياءِ النَّدى وهو فاني

أمَّا ابنُ قزلٍ المشدُّ، فهو من الشُّعراء الذين قَصَروا كثيراً من شعره لمديحِ الملك يوسف، وكان مغرماً بتعدادِ آثارِه، ومحاسنِ دولتِه الأيُّوبيَّة، وقد أحسن هذا ابن قزلٍ أيَّما إحسانٍ في مدح النَّاصرِ من طريق مدحِه للأسرة الأيُّوبيَّة العريقة في المجدِ والسُّؤدد، وجاء مدحُه صادقاً، جمعَ فيه الصفاتِ الدِّينيَّة للدَّولة الأيُّوبيَّة، من مثل الصَّلاحِ والتَّقوى والعدل، كما جمع إليها صفاتِ المجدِ والسُّؤدد، واعتاد الشَّاعر أن يمزجَ مدحَه بالدِّعاءِ لِدَولةِ الملكِ يوسف، كقولِه (ابن قزل، ٢٠٠٢: ١٢١):

ويا حُسْنَها مِنْ دولةٍ ناصِرِيَّةٍ * صَلاحِيَّة طَبْعـــــاً بغيرِ تَطَبُّعِ

ورعياً لها مِنْ عَزْمَةٍ يُوســفيَّةٍ * تَقاعسَ عنها عَزْمُ كِسرى وتُبَّعِ

ومثلما ذكرَ ابن قزل محاسنَ دولة يوسف، فقد اهتمَّ أيضاً ببيانِ عنايةِ الملكِ يوسف بالعلوم والأدب والفنون، فذكرَ الشَّاعرُ ديوانَ الإنشاء الذي أقامَه الملك يوسف على أحسن وجهٍ، وأشرف عليه، وجعلَ فيه أكابرَ الكُتَّاب والأدباء، ونجد له ذِكْراً في شعر ابن قزل حيث يقول (ابن قزل، ٢٠٠٢: ٤٣٣):

وكاتبينَ كِـــــرام * تَعاظَمــوا أقدارا

تَوارثُوا الفخرَ والجُو * دَ شِـيمةً وَوَقارا

يعيشُ فيهــمُ أميراً * مَنْ سامَهُم إيثارا

لو لم يكونوا صُدورا * ما أُودِعُوا الأسرارا

ويشارك ابن قزلٍ بقيَّةَ الشُّعراء في مدح الملك يوسف بخصلَتَي الجودِ والشَّجاعة، حتَّى إنَّه لَيُكْرِمُ ابنَ السَّبيلِ، ويُؤْوِيه ويُعينُه في شُؤونِه، ويشبِّهُ كَرَمَه على عادة العرب الأقدمينَ بالبحرِ، وذكرَ ابن قزلٍ ذلك في معرض الثَّناء عليه في بعض شعره فقال (ابن قزل، ٢٠٠٢: ١٠٨):

ملكٌ هو البحر في العطايا * لكنَّ ندى راحتَيه أَعْذَبْ

إذا أتاهُ غريبُ قـــــومٍ * أحسنَ في حَقِّــهِ وأَغْرَبْ

فهو إنْ أعطى العطيَّةَ أَغْرَبَ فيها وأدهشَ بسخائه وعظيم جوده، وتبدو صفةُ الكرم طاغيةً في مدح ابن قزل للملك يوسف، فيصوِّره في شعره كالسحاب المُرْسَل، لا يمطر الماءَ بل الذَّهبَ، ويمدحُه بنسبه العريق فهو عزيزُ الأب كريمُ النَّسب، مِنْ أصل بيت الملك عراقةً، ومنه أخذَ صفات الكرم ومحاسنَ الأخلاق (ابن قزل، ٢٠٠٢: ١٣٠):

لا ولم نَنْظُرْ معاينـــــةً * سُحباً قد أمطرَتْ ذَهَبا

غير أيدي يوسفَ الملك النَّاصر النَّدب محمَّد أبـا

إنَّ الشُّعراء الذين مدحوا الملك يوسف لم يغفلوا الجانبَ الدِّينيَّ في مدحهم له، فهو حصنٌ للإسلام يحميه، ويذودُ عنه، وهو رجلُ الجهاد والحرب والحميَّة والدِّفاع عن بلاد المسلمين، وأثبتَ ابن قزل هذه المعاني في بعض أشعاره، فمن ذلك قوله (ابن قزل، ٢٠٠٢: ٣٥٢):

وأيُّ ثغورٍ لا يعـــزُّ منـــالُهـــا * ومِنْ حولها بيضٌ ومَنْ دونها سُمْرُ

كما قد حمى الإسلامَ في كلِّ وجهةٍ * مَلِـكٌ على كلِّ الملوك له الفَخْرُ

هو النَّاصرُ السُّـــلطان والسَّيِّدُ الذي * بأيَّامه يزهو ويَفْتَخِـــــرُ الدَّهرُ

يذكرُ ابنُ قزل العَدْلَ الذي أسَّسَ عليه الملكُ يوسفُ دولتَهُ، فهو عادلٌ يقصدُ في الحُكْم، فإنْ أتَتْ ساعةُ الكرم والجود لم يَقْتَصِدْ، بل تراه معطاءً جواداً بغير اقتصاد في عطائه (ابن قزل، ٢٠٠٢: ٣٥٥):

ما زالَ يقصدُ عَدْلاً في رعيَّته * فَلَنْ تراهُ إذا ما جادَ مُقْتَصِدا

فضلاً عن الشُّعراء الآخرينَ يبرزُ الشَّاعر شرفُ الدِّين الأنصاريُّ بين شعراء الملك يوسف، ويُعَدُّ شرفُ الدِّين الأنصاريُّ من شعراء عصره البارزينَ، وديوانُ شعره يفيضُ بمدائحه للملك يوسف بوصفه رمزَ القوَّة والإيمان وحِصْنَ الإسلام، إنَّه اليوسفيُّ الثَّاني في صَبْره وحِكْمَته وعَدْله، ولا ثالثَ لهما (شرف الدِّين الأنصاري، ١٩٦٧: ١٨٠):

فأنْتَ صلاحُ الدِّين وابنُ صلاحه * فلا مَلِكَ أَولى مِنْكَ بالنَّهي والأمرِ

وما أحدٌ لِلْيُوسُـــــفَين بثالثٍ * ســواكَ ولِلْبَكْرَين والشَّمس والبَدْرِ

ومشكلةٍ كشفْتَ بالرَّأي لَبْسَـــها * فغادرْتَهـــا في مثلِ مُنْصَدعِ الفجرِ

هنا تبرزُ صورةُ الملك يوسف الرَّجل الحكيم الحصيف الذي يحسن إدارةَ الدَّولة والقيامَ بشؤونها لينهضَ بها فتكون دولةً جديرةً بأمجاد آبائه، وهو صونٌ لأمانة الأمَّة، ولأفرادها المستضعفينَ (شرف الدِّين الأنصاري، ١٩٦٧: ١٨٦):

وإذا أَمِنْتُ بيوســـــــفَ بنِ محمَّدٍ * جورَ الزَّمان فخيفتي ممَّاذا
مَلِكٌ إذا سَـــــــئِمَ الملوكُ بَنِيَّهُـمْ * أَلْفَيْتَهُ لِبَنِي الزَّمانِ مَــلاذا
ما عذتُ من شيطان بؤس أو ردى * بجلاله إلا وجدتُ معاذا
ذلَّتْ عِدايَ إذ اتَّصـــــــلْتُ بحبلِه * وتَقَطَّعَتْ أكبادُهُمْ أفلاذا

ويشتركُ شرفُ الدِّينِ الأنصاريُّ مع شعراء آخرينَ بوصف شجاعة الملك يوسف وكَرَمِه، فهو الليث في ساحة الحرب، والمطر في ساعة السِّلْم، شجاعٌ وكريمٌ، وفي ذلك يقول (شرف الدِّين الأنصاري، ١٩٦٧: ٤٣١):

كاللَّيثِ في يوم حربٍ * والغيثِ في يوم سِلْمِ

لم تقتصر مدائح الشِّعْرِ في الملك يوسف على المشارقة من العرب، بَلْ امتدَّتْ إلى المغاربة، حتَّى إنَّ صاحبَ التَّصانيف الأدبيَّة والتَّاريخيَّة الجليلة ابنَ سعيد المغربيَّ كان في مقدِّمة مادحيه، وقد امتدحه ابنُ سعيد المغربيُّ بأصالة النَّسَبِ المتَّصل بالعائلة الأيُّوبيَّة، فهو سليلُ بيتٍ عريقٍ في الرِّياسة، ورثَ الكرمَ كابراً عن كابرٍ، كما ورثَ الشَّجاعةَ عن أقوامه السَّابقين، نجد ذلك في قوله (لسان الدِّين بن الخطيب، ١٩٧٧: ٤، ١٥٦):

مِنْ آلِ يعقوبَ الذين هُمُ هُمُ * ورثُوا النَّـــــدى والبأسَ أَكْبَرَ أكبرا
أهلُ الرِّياسة والسِّياسة والعُـلا * بسيوفِهم حَلُّوا الذَّرى، مَنَحُوا الذُّرا

ويهنِّئه ابنُ سعيد المغربيُّ بفتح دمشقَ، بقصيدةٍ بديعةٍ يذكرُ فيها انتصاراته، ولا تخلو القصيدةُ من جمالٍ في التَّصوير وبراعةٍ في الوصفِ حيث يقول (ابن سعيد المغربيُّ، ١٩٧٧: ٧):

أمَّا دمشـــقُ فقد ألقَتْ أَزِمَّتَهـا * على يديكَ على حِصْنٍ وتحصينِ
لم تَمْتَنِعْ عندما قارَبْتَ ســاحتَها * وجالَ جيشُـكَ في تلك الميادينِ
لمَّا نهضْتَ إليهــا وهي عاصيةٌ * تَلَفَّعَتْ من حيـــــاءٍ بالبساتينِ
مثلَ العروسِ تجلَّتْ في ملابسِها * بكلِّ ما جلَّ من حُسْـــنٍ وتَزْيِينِ

وتبقى الصِّفَةُ المشتركةُ بين الشُّعراء الذين امتدحوا الملك يوسف جميعاً هي الإجماعُ على صفتينِ من صفاته، هما صفة الكرم وصفة الشَّجاعة، ويتفنَّن بعضُ الشُّعراء في الجمع بينهما في كلِّ مدحة، فنراهم يذكرون يدَه التي تعطي المسكينَ فتجود في العطاء، ويدَهُ التي تبطشُ في العدوِّ فتجودُ في البطش، هاتان صورتان جميلتان للمقابلة بين الجودِ في الكرم والجودِ في القتل، يذكر عبد الله بن محاسن

هاتين الصِّفتين، وهو أبو هلب عبد الله بن محاسن العبَّاسيُّ الحلبيُّ، شاعر مشهور من شعراء القرن السَّابعِ الهجريِّ، فيقول (ابن الشَّعَّار، ٢٠٠٥: ٣، ١٧٥):

أنتَ الذي يُفني ويُغني بالنَّدى * والبأسِ في يومَي عطاهُ وحربِـهِ

فعلى المُوالي نعمـــةٌ من مالِه * وعلى المعادي نقمةٌ من عَضْبِهِ

ونلاحظ أنَّ قصائدَ المديح في الملك يوسف الأيُّوبيِّ تجمع سلاسةَ اللفظ مع متانة التَّركيبِ وجودةِ التَّصوير، كما رأينا في نماذجها السَّابقة، كذلك تبدأ القصائد بالغزلِ، جرياً على عادة استهلال شعر المدح بالنَّسيب عند العربِ، فمثلاً يقول شرف الدِّين الأنصاريُّ في مطلع قصيدةٍ يمدح فيها الملك يوسفَ، فيستهلُّ بالغزل (شرف الدِّين الأنصاري، ١٩٦٧: ١٧٦):

علقْتُـــه كالغصن أسمرَ أهيفا * وعَشِقْتُه كالظَّبي أحورَ أكحـــــلا

فضحَ الغزالةَ والغزالَ فتلك في * وَسَطِ السَّماءِ وذاك في وَسَطِ الفلا

كذلك يفعل غيره من الشُّعراء، فتسيطر المقدِّماتُ الغزليَّة على مدائحهم له، كقول هاشم بن محمَّد الأسديِّ في مقدِّمة قصيدةٍ مدحيَّةٍ في الملك يوسفَ، فيستهلُّ بالنَّسيب (ابن الشَّعَّار، ٢٠٠٥: ٩، ١١٣):

مُذْ عاينَتْ عيناىَ وردةَ خدِّهِ القاني ففي بحرِ الهوى أرداني

إنَّ المديحَ غرضٌ قديمٌ له أصوله، وهو من أبرز أغراض الشِّعر العربيِّ منذ العصر الجاهليِّ، وقد حظيَ بعناية فائقة من الشُّعراء والمتلقِّين، حتى صار نصيبُه القسمَ الأوفرَ منَ النِّتاج الشِّعريِّ، ومن المعروف أنَّ الشَّاعر الجاهليَّ والشَّاعر الإسلاميَّ كانا يرسمان للممدوح صورةً مثاليَّةً من الكرم والشَّجاعة والسَّماحة والعفَّة وحماية الضَّعيف والعزم والمروءة والبأسِ، غير أنَّ القصيدةَ الإسلاميَّة أضافت إلى ذلك صفاتٍ أخرى ذات طابعٍ دينيٍّ، مثل العدلِ والتَّقوى وصيانة الدِّين والدِّفاع عن الإسلام، ولذلك نجد المدائحَ التي قيلت في الملك يوسف تجمع بين هذه الصِّفاتِ، وتجري على نَسَقِ معاني شعرِ المدحِ العربيِّ، حتَّى إنها استهلَّتْ بالنَّسيب كما رأينا في الشَّواهد السَّابقة التي ذكرناها.

نتائج البحث:

ظهر من الشِّعْرِ الذي امْتُدِحَ به الملك يوسف بن محمَّد الأيُّوبيُّ، تشجيعُه للشِّعر في عصره، بإجزال العطاء عليه، وظهرَتْ من خلال الأشعار خصاله الأخلاقيَّة، التي شجَّعَتْ على وفود الشُّعراء إلى بلاطه من كلِّ حدب وصوب، وكان أكثرهم يجمع بين الشَّاعرية وصفاتٍ أخرى، فمنهم الشَّاعرُ الأديبُ، ومنهم الشَّاعرُ المقرئُ، والشَّاعر المؤرِّخُ صاحبُ التَّصانيف الأدبيَّة والتَّاريخيَّة الجليلة.

أسهمَت الظُّروف السِّياسيَّة والاجتماعيَّة في توجيه شعر المديح الذي قيل في الملك يوسف، فالحياة السِّياسيَّةُ فرضَتْ على تلك الأشعار المدحيَّةِ موضوعَ المناسبات، بينما ساعدَتِ الحياة الاجتماعيَّة في تدفُّق شعر النسيب في مقدمة المدائح.

ظهر في تلك المدائح غرضُ التَّكَسُّبِ، وهذه عادةٌ جرت عليها أكثر المدائح العربيَّة، لكنَّ ذلك لا يقلِّل من شأن الممدوح الملكِ يوسف، وبعض تلك المدائح كانت سبيلا لوصول بعض الشُّعراء إلى مكانة رفيعة في الدَّولة الأيُّوبيَّة في عهده.

اشتهر الملك يوسف بميله إلى الأدب، وتقريبه للشُّعراء في بلاطه، وكان لا يجود عليهم بالمال والعطايا، وهذا ما يفسِّر اتفاق الشُّعراء على مدحه بالكرم والجود في قصائدهم.

كثرة صولاتِ الملك يوسف في ساحات الوغى دفعَتْ الشُّعراءَ في عصره إلى مدحِه بالشَّجاعة، وأمدَّ ذلك قرائحَهم الشِّعريَّةَ.

المصادر والمراجع

البهاء زهير بن محمَّد بن علي المصريُّ (د.ت)، ديوانه، القاهرة، المطبعة المنيرية.

el-Behâ Zuhéyr b. Muhammed b. Ali el-Mısrî d.t, Divânuhu, el-Kâhire, el-Matbaatu'l-Munîre.

خير الدِّين الزركلي(٣٠٠٢)، الأعلام ط٥١، دار العلم للملايين، بيروت.

Hayruddîn Ziriklî (2003), el-'Alâm 15.baskı, Dâru'l-İlm lil-melâyîn, Beyrut

الذَّهبيُّ، شمس الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان (٥٨٩١)، سير أعلام النبلاء ط٣، تح: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشَّيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسَّسة الرِّسالة، بيروت.

ez-Zehebî, Şemsuddîn Ebu Abdullah Muhammed b. Ahmed b. Osmân(1985), Siyeru E'lâmi Nubelâi 3.baskı, Thk. Mecmûtaun mine'l-Muhakkikin bi- işrâfi eş-Şeyh Şuayb el-Arnâvût, Beyrut.

ابن سعيد المغربيُّ (٩٧٩١)، اختصار القدح المعلَّى، دار الكتاب المصري اللبناني، لبنان.

İbn Said el-Mağrîbî(1979), İhtisâru'l-kıdeh el-Mu'allâ, Dâru'l-Kitâbi'l-Mısrî el-Lubnânî, Lubnân.

شرف الدِّين الأنصاريُّ (٧٦٩١)، ديوانه، تح: عمر موسى باشا، مطبوعات مجمع اللغة العربيَّة، دمشق.

Şerefuddîn el-Ensârî(1967), Divânuhû, Thk.: Ömer Musa Paşa, Matba'ati Mecma'i'l-lüğati'l-'Arabiyye, Dımaşk,1967.

ابن الشَّعَّار، كمال الدِّين أبو البركات(٥٠٠٢)، قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزَّمان ط١، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكُتب العلميَّة، بيروت.

İbn'ş-Şe'âr, Kemâlüddîn Ebu'l-Berakât(2005), Kelâidu'l-Cemân fi Ferâidi Şu'arâi hâza ez-Zamân 1.baskı, Thk.: Kâmil Suleyman el-Cebûrî, Dâru'Kurubi'l-İlmiyye, Beyrut.

ابن قزل، سيفُ الدِّين علي بن عمر المشدُّ (٢٠٠٢)، ديوانه، تح: مشهور عبد الرَّحمن الحبازي، مركز التَّعاون للنَّشر، القدس.

İbn Kızıl, Seyfuddîn Ali bin Ömer el-Meşedd(2000), Divânuhû, Thk.: Meşhûr Abdurrahman el-Hebbâzî, Merkezu't-Te'âvun li'n-Neşri, el-Kudus.

الكتبيُّ، محمَّد بن شاكر (٠٠٠٢)، فوات الوفيات، تح: محمَّد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميَّة، بيروت.

el-Ketbî, Muhammed b. Şakir(2000), Fevâtu'l-Vefeyât, Thk.: Muhammed Ali ve Adil Ahmed Abdulmevcûd, Dâru'l-Kutubi'l-İlmiyye.

لسان الدِّين بن الخطيب (٧٧٩١)، الإحاطة في خبار غرناطة، تح: محمَّد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة.

Lisanuddîn ibnu'l-Hâtîb (1977), el-İhâta fi-Ahbâri Gırnata1.baskı, tah.: Muhammed Abdullah İnân, Kahire, Mektabetu'l-Hancî.